ملف العدد:

إدوارد سعيد: المفكر والناقد

النزعة الإنسية في فكر إدوارد سعيد

سعيد بنسعيد العلوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط

"يفرض علي اختصاصي، بموجب التكوين والمهنة، أن أكون "إنسيا""
إدوارد سعيد، الاستشراق

استهلال

لعل أخص صفة تسم فكر إدوراد سعيد وأبرز علامة تميز إنتاجه الغزير والمتنوع معا هي صفة الإنسية (l'humanisme). فالإنسان هو مطلب مؤلف "الثقافة والامبريالية" ومبتغاه، بعيدا عن انتساب الإنسان إلى هذا البلد أو ذاك، أو انتمائه لهذه المجموعة الإثنية أو تلك، فهو مدار التحليل وهو الغاية من الدراسة والبحث. وإذا كان البحث العلمي يؤكد بالحجج الدامغة وهم الاعتقاد بوجود عرق صاف ويرى في القول به خرافة ارتبكت باسمها أبشع الجرائم والآثام، بل واقترفت حروب الإبادة أحيانا، فإن النظر العلمي يعلمنا كذلك أن الثقافات البشرية، مع اختلافها وتنوعها، هي أبعد ما تكون عن "المونادات" التي يتحدث عنها الفيلسوف ليبنز(جواهر بسيطة، مفردة، لا تنفعل مع بعضها البعض ولا تتصل فيما

بينها) بل إن الثقافات البشرية ليست وحدات منغلقة على دواتها وإنما هي، على العكس من ذلك كلية تشتمل على عناصر "أجنبية"، وتدمج من الاختلافات وأشكال المغايرة أكثرما ترفض بكيفية واعية"[1]. وقد يجوز القول، بكيفية أخرى، إن الأشكال والصيغ الثقافية هي في الأحوال كلها "هجينة كلها، مختلطة، وغير صافية"[2].

يؤسس التذكير بهذه الحقائق الأولية قاعدة للسلوك يريد إدوارد سعيد أن يصدر عنها في دراساته النظرية ومبدأ يلتزم به في خطبه وكذا في حواراته مع الآخرين، ورسالة يسعى إلى تبليغها لقارئيه ومهمة يقدر ثقلها حق تقديره ويحث المثقفين على حلها واحترامها سعيا منهم إلى تحرير الإنسان من الطوق الذي عملت الامبريالية على ضربه حوله وقد أرادت للفكر أن يسير في ركابها وأرادت للاستشراق أن يكون مروجا لأطروحاتها في غير كبير معرفة بالثقافة والتاريخ في أغلب الأحيان. لذلك كانت المهمة تلك عملا نضاليا عند مؤلف "الاستشراق" مادام "البحث عن الإنسان" مبتغاه وطلب تحريره مراده وهاجسه الذي يسكنه ـ ولذلك كانت الخطوة الأولى على هذا الدرب هي العمل بحكمة بسيطة، واضحة، يأخذها عن مفكر إيطالي مناضل يكن له إدوارد سعيد احتراما خاصا، فهو يرجع إليه مرات عديدة في "الاستشراق" وفي "الثقافة والامبرالية" وفي مقالات وأحاديث شتى[3]، هو أنطونيو غرامشي "إن ما ينبغي أن يشكل نقطة الانطلاق في العمل النقدي هو الوعي بما هو الشيء حقيقة، يعني العمل بمبدأ "إعرف نفسك بنفسك" من حيث إنك نتاج

1. Edward. W. Saïd, *Culture et impérialisme*, Fayard, Le monde diplomatique, 2000, Paris, P : 51.

2. المرجع السابق، نفس الصفحة.

والحق أنن آسف، كل الأسف، لاضطراري الرجوع إلى النص الفرنسي، في هذا الكتاب "الثقافة والامبريالية" وكذلك في الكتاب والأشهر لإدوارد سعيد "الاستشراق: الشرق كما اختلقه الغرب" ذلك أن ترجمة الأستاذ كمال أبو ديب للكتابيين تبين عن جهل بقواعد اللغة العربية وبلاغتها من جانب أول، وعن استهتار بالمضامين التي سعى إدوارد سعيد لتبليغها من جانب ثان.

والمؤسف أن إدوارد سعيد كان حسن الظن بالترجمتين معا. وربما كانت معرفته المحدودة باللغة العربية (أو صداقته للمترجم) وراء ذلك.

3. انظر، على سبيل المثال "تمثيلات المثقف" ـ ترجمة فخري صالح، مجلة نزوى، العدد الثالث، يونيو 1995، ص. 33 وما بعدها.

سيرورة تاريخية عملت حتى الوقت الحاضر وتركت فيك من الآثار ما لا يعد ولا يحصى (. . .) إن هذا الجرد هو ما يلزم أن يكون البدء به"[4]. يرجع إلى هذه الحكمة مرات ليسائل ذاته عما كان يبتغيه في "الاستشراق" ولكنه يذكر القارئ، بل يتذكر مساره الشخصي ومعاناته الإنسانية في ذلك التوتر الخصب الذي عاشه بين انتسابه مولدا ونشأة وتكونا نفسيا أولا إلى "الشرق"، ذاك الذي جعل منه الاستشراق مادة لدرس وتأمل كانت حقيقته تزييف "الشرق" ورسم صورة لا توجد إلا في مخيال المستشرق (= الغربي) - وبين انتمائه من جهة التكوين الثقافي ولغة الكتابة إلى "الغرب". هو توتر حاد، يكشف عن معاناة إنسانية عميقة مصدرها شعور ملازم بالغربة: الغربة في أشد صورها قسوة، تلك التي تجعل المرء المتقلب بين الشرق والغرب يحس أنه لا ينتمي، كلية ووجوديا، إلى أي منها. إنها تجربة الانتماء القلق الذي يمازجه الرفض. تجربة تكتسب بها "الإنسانية" خصوبة مصدرها القلق الخلاق: ذاك الذي يكون بموجبه عدم الانتماء إلى أي من العالمين (الشرق/الغرب) رفضا للتعيين الظاهري، أي لما كان حجبا للإنسان في حقيقته، حقيقة الذات التي تكون الحكمة السقراطية (إعرف نفسك بنفسك) طريقا نحوها وكشفا عنها.

1. اللامنتمي أو الموجود "خارج المكان"

كان من المنطقي أن تأتي السيرة الذاتية لإدوارد سعيد حاملة لهذا العنوان المشحون بالدلالة، وإن أغرى بالهرب من كل دلالة: "خارج المكان". وربما جاز القول إن هذا العنوان هو عنوان إقامة، إقامة ماهيتها التنقل المتصل بين عالمين "حيثما ارتقت بي الذكرى بعيدا فإنني أحسني منتسبا إلى عالمين دون أن أكون، كلية منتميا إلى أي منهما"[5]. في هذا الجهد المضني الذي يروم معرفة الذات بواسطة الذات نفسها (إعرف نفسك بنفسك) يكون من المفيد لنا أن نصاحب الرجل وهو يقلب مبضع الجراح بين يديه بحثا وتنقيبا في أعماق الذاكرة وثناياها عسانا ندرك مغزى العبارة القاسية والغريبة معا: الانتساب إلى عالمين اثنين

4. أنطونيو غرامشي "دفاتر السجن" يورده إدوارد سعيد في:
.L'Orientalisme, l'orient crée par l'Occident, Seuil, 2001, P : 39
.Impérialisme et culture... précité, P : 51 .5

متمايزين دون إحساس فعلي بالانتماء إلى أحدهما هل هي حركة بندول لا تتوقف حركته؟ أم إنها حال من الرفض الوجودي للحدود والفواصل؟

لنحاول جمع ما تفرق من شذرات وتأليف ما اختلف من عناصر في حركة تنتقل بين الحديث عن الذات في السيرة الذاتية والرجوع إليها في تضاعيف ما كان كتابة تأسيسية.

أولى صور الانتساب إلى عالم، دون شعور فعلي بالانتماء إليه، تحملها أحاديث سعيد عن القاهرة. إذا كان صاحب "الاستشراق" قد ولد في القدس وكان من الطبيعي أن يحتفظ لها في قلبه بمكان ومسافة لا يلجها غيرها، وكانت تلك المسافة تؤثثها ذكريات طفولة وإقامات متقطعة، إذا كان ذلك كذلك فإن عين الرجل ومداركه الأولى تفتحت على القاهرة. ولكن القاهرة تفيض، في وجدان الطفل، بألم الوحدة ومرارة الغربة. الغربة في المدينة، وفي المدرسة، وفي النادي، وفي الحي. والوحدة في العائلة، داخل البيت، وداخل فصول الدراسة في المدارس التي تنقل فيها. هي غربة في المدينة يعرفها من قدر له أن يولد في أحد الأحياء الراقية، زمان الحضور الاستعماري. فالحي "الراقي" ساكنته، الأساس، هم أبناء الجالية الاستعمارية وهم، في العاصمة تحديدا، الماسكون بزمام السلطة الآمرون الناهون الذين يتربعون على أكتاف الأهالي ويكتمون أنفسهم. ولا غرو أن "الزمالك" إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها بسنوات قليلة كان كذلك. والانتساب إلى الزمالك يكسب صاحبه من "الأهالي" وضعا يجعله غريبا بعيدا عن العين والقلب عند ساكنة "الحسين" و"السيدة زينب" و"القلعة" و"العتبة" و"باب الشعرية" مثلما يجعله غريبا، في مستوى آخر من الغرب، ووحيدا، في معنى آخر من الوحدة، عند الساكنة الأنجليز. وهذا النوع الثاني من الغربة خبره صاحبنا في المدرسة، في "إعدادية الجزيرة" حيث الجو "جو طاعة عمياء يؤطرها إذعان بغيض عند المعلمين والتلاميذ على السواء (...) زودتني بأول اتصال (...) مع السلطة الأنجليزية من خلال الأنجليزية القحة لأساتذتها وللعديد من التلاميذ". هؤلاء التلاميذ الذين لم تكن تربطهم علاقة خارج المدرسة "ذلك أن حبل سرة سرى كان يجمعهم ويخفيهم في عالم آخر مغلق"[6]. مثلما خبر هذا النوع الثاني من الغربة في "الحياة

6. إدوارد. و. سعيد، "خارج المكان"، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، 2000، ص: 70.

الاجتماعية" التي كان من المفروض أن يخولها له الوضع المالي لأبيه، باعتباره رجل أعمال وصاحب مقاولات وشركات يسكن في سكن راق يسهر على راحة الأسرة فيه مجموعة من الخدم، فيهم السائق والمربية. لكن شيئا من ذلك، فيما تختزنه ذاكرة الطفل إدوارد لم يكن ممكنا. كانت أسرة سعيد عضوا في النادي الراقي الشهير القريب من الزمالك (نادي الجزيرة)، ويذكر الطفل إدوارد أنه إذ كان يجتاز أحد حدائق النادي في طريقه إلى "إعدادية الجزيرة" اعترض أحد الأنجليز سبيله، ويعلم إدوارد أنه أب لأحد زملائه في الصف مثلما يعلم أنه كان الذي يوقع المراسلات التي تتلقاها الأسرة من النادي. صرخ في وجهه "ألا تعلم أنه ممنوع عليك ان تكون هنا ؟ سأل مؤنبا. فبدأت أغمغم أنني عضو في النادي، لكنه قاطعني بلا رحمة: "لا تجب يا ولد، غادر المكان فقط وغادره بسرعة. ممنوع على العرب ارتياد هذا المكان، وأنت عربي". ولا غرابة أن يحس الرجل إدوارد سعيد طعم المرارة في شفتيه، ويستشعر الغصة في حلقه، والأسى في قلبه، وأن يستشعر حمرة الخجل والانفعال في وجنتيه أربعين سنة بعد ذلك فيضيف معقبا "وحتى لو لم يسبق لي أن فكرت بنفسي بوصفي عربيا فقد أدركت مباشرة آنذاك أن معنى النعت مفقد للأهلية حقا"[7].

غريب، بحكم المسكن والوضع المالي للأسرة، في أعين أهالي البلد: "أنشأنا عالمنا الخاص داخل الزمالك". وغريب، بحكم "العروبة"، في أعين الأنجليز المستعمرين. ولكنها غربة أخرى، أشد عمقا وغرابة معا، سيجربها الفتى في المدرسة الأمريكية التي انتسب إليها، بعد سنوات الإعدادية، بحسبانه ابن رجل أعمال أمريكي "وأنا لا أملك أدنى شعور بالانتماء إلى أمريكا"[8]. وإنما هي مدرسة غريبة بلكنة أساتذتها واختلافهم عن أساتذة الإعدادية الأنجليز، غريبة بالقمصان الملونة ذات المربعات والألوان الصارخة الألوان التي يرتديها التلاميذ، وغريبة بما يتناولونه من أطعمة، وما يخوضون فيه من معارك وصراخ في فترات الاستراحة. وقد نستشعر مع الرجل وجودا لهذه الغربة يقول إنه لا يزال يشعر بنفسه كذلك بعد سبع وثلاثين سنة من الإقامة في نيويورك: "ولا أزال إلى هذا اليوم أشعر

7. المرجع السابق، ص: 72.
8. ص: 118.

بأني بعيد عن البيت مهما بدا الأمر مضحكا". وقد نعيش معه حرقة اللوعة إذ يقول عن القاهرة، مدينة الطفولة والمراهقة التي كان يعشقها أنها "المدينة التي أحببتها على الدوام دون أن أشعر مرة بانتمائي إليها"[9]. حب قاس ومرارة تحفر في الروح أخاديد عميقة. مرارة لا تجد مثيلا لها إلا في معاناة وجودية أخرى "ولا يزال يصعب على أن أتقبل حقيقة أن أحياء المدينة تلك (= القدس) حيث ولدت وعشت وشعرت بأني بين أهلي، قد احتلها مهاجرون بولونيون وألمان وأمريكيون غزوا المدينة وحولوها رمزا أوحد لسيادتهم حيث لا مكان للحياة الفلسطينية التي انحسرت إلى المدينة الشرقية التي أكاد لا أعرفها"[10].

يحفر ذكرى القاهرة والقدس حفرا في النفس وفي الذاكرة فهو يحملها معه إلى أمريكا. كان، على سبيل المثال، مخيرا في الدخول إلى الجامعة بين الذهاب إلى "هارفارد"(مع حمولتها القوية، وإيقاعها المحدث للرهبة والإجلال في نفس الطالب) وبين الانتساب طالبا إلى برنستون "ولكن لأسباب غريبة جدا، أجدها الآن جد واهية، حزمت أمري بسرعة وقررت الذهاب إلى برنستون التي زرتها مرة مع أهلي في الصيف الذي سبق انتسابي إلى ماونت هيرمون (...) جذبتني لأسباب خرافية (...) إنها انعكاس لحياة القاهرة في الولايات المتحدة"[11].

ولكن معهد ماونت هيرمون يجعل فتانا يجرب طعم المرارة بكيفية أخرى، ويخبر الشعور بالظلم وبالعيش "خارج المكان" بكيفية أخرى. ذلك أن تقاليد الدراسة في المعهد كانت تقضي بأن يلقي كلمة الطلبة، في حفل التخرج، من جعلته المرتبة العليا التي يكون قد انتزعها المهيأ لذلك. لكن شيئا من ذلك لم يحدث "فأدركت أنه قد حكم علي، ان أبقى اللامنتمي مهما فعلت (...) جلست خلال حفل التخرج الفاتر معتمرا قلنسوتي ومرتديا العباءة السوداء، أشعر بلا مبالاة تصل حد العداء"[12].

9. المرجع السابق، ص: 70.
10. المرجع السابق، ص: 110.
11. الصفحة 307.
12. المرجع السابق، ص: 306.

2. الشرق فكرة

يصدر إدوارد سعيد كتابه "الثقافة والامبريالية" بفقرة يعشقها عند الروائي جوزيف كونراد (أعماق الظلمات) ـ فهو قدر صدر بها، قبل ذلك، الفصل الثالث من "الاستشراق" وهو يكثر الرجوع إليها، بعضا ومعنى، في مواطن أخرى عديدة من كتاباته فهي أشبه ما تكون باللازمة التي تتردد في معزوفته المفضلة. وجوهر الفكرة أن غزو الأرض، ذاك الذي يعني في نظر الإنسان الغربي أن يخضع لسيطرته كل من كان ذا لون مغاير للونه وأنف أفطس من أنفه قليلا، هذا الغزو تقوم وراءه فكرة "فكرة موجهة، لا نقول تبريرا عاطفيا وإنما نقول فكرة. عقيدة متجردة عن المصالح تكمن في تلك الفكرة، شيء مما يكون للمرء أن يسجد له وأن يقدم له القرابين"، للفكرة قوة وسحر قاهرين يمكنان فيهما ويفعل الإنسان وينفعل بموجب ذاك السحر وتلك القوة. وبموجب ما يستدعيه التشابه في العبارة والتقارب في المعنى تحضرني قولة الحكيم روماني هو إبيكتيت (أو إبكتيتوس" لاشك أن إدوارد سعيد ملما بفكره، بحكم التكوين الذي تلقاه، كما تحضرني خلاصة نظرية لفيلسوف كان مؤلف "الاستشراق" يعده في جملة من يستحقون التبجيل من رجال الفكر وهو الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار ـ فكان يرجع إليه ويقتبس من أقاويله وتحليلاته أحيانا.

يقول إبيكتيت في كراسته: "إذا ما جابهتك فكرة عسيرة فاحرص على القول: "إنك لست سوى فكرة ولست أبدا ما تمثيله"[13]. وأما نظرية باشلار، وهي تتعلق بالصلة التي تقوم بين المعرفة والواقع، فيمكن إجمالها، تبسيطيا، على النحو التالي: ليست المعرفة، مهما ادعينا ذلك، نسخا للواقع أو تعبيرا عن "الواقع" في حقيقته، بل هي، في الأحوال كلها، إعادة إنتاج لذلك "الواقع" وتركيب له. تركيب نصدر فيه عن عناصر ذاتية ومعرفية، لا شعورية في الغالب ـ ولذلك فإن الأنسب، كما فعلنا، هو أن نجعل كلمة "الواقع" كما فعلنا: بين مزدوجتين، مما يفيد التحفظ والتردد. لا نقول هذا عن المعرفة العلمية في مخبر العالم الكيميائي أو الفيزيائي، بل نقولها أيضا، وربما أساسا، عن المعرفة التي تتصل بمجالات العلوم الإنسانية. وهكذا فليس صحيحا في شيء أن يدعي المؤرخ أنه "يعيد إنتاج الوقائع التاريخية"، بل الأصح أن يقول إنه يركبها على نحو جديد، مخالف، تتدخل فيه عوامل

13. Epictète-Manuel d'Epictéte, édition Garnier – Flammarion, Paris, 1996, P : 208.

تتعلق بالسيكولوجيا، وبالإيديولوجيا، وبالقناعات الباطنة اللاشعورية خاصة. كذلك نقول إن عالم الاجتماع، إذ يقول إنه يحلل الوقائع والعلاقات الاجتماعية، فحقيقة الفعل عنده أنه يقوم بتركيبها تركيبا جديدا وأن ما يقوم بتحليله فهو ذلك التركيب نفسه.

إذا ما انتبهنا إلى الدرس الباشلاري هذا، من جهة أولى، وإلى الحكمة الرواقية من جهة ثانية، ثم رجعنا فنظرنا، مع إدوارد سعيد، في حديث جوزيف كونراد عن "الفكرة" وفعلها السحري في نفس المعتقد لها وهذا من جهة ثالثة ـ متى فعلنا ذلك فإنه يكون في إمكاننا أن ندرك الصلة بين المعرفة والسلطة، إجمالا، ثم ندرك الكيفية التي تعدو بها المعرفة خاضعة للسلطة وتابعة لها، متى عمدنا إلى التفصيل، أي إلى إعمال العقل النقدي في الأعمال الإبداعية التي ترتبط بظروف وملابسات معينة (كونراد، ديكنز، كامي، فيردي... فلوبير وغيرهم...) وكذا في الدراسات والأعمال الفكرية التي تتصل بالشرق (على سبيل المثال) (دوساسي، رونان، ماركس، برنارد لويس، وغيرهم). ومتى فعلنا ذلك فإننا نتمكن من الإمساك بمنهجية علمية ناجعة في فهم وتحليل الأعمال الإبداعية والنظرية التي تتصل بالامبريالية، بكيفية أو أخرى، وتتصل، في خيط رفيع بالاستشراق وعوالمه ونظرياته وبالمراحل والأطوار التي مر بها ـ وهذه هي الفائدة الأولى. أما الفائدة الثانية، أو الحكمة العملية المحمودة، فهي القدرة على الإبحار بعيدا والغوص في العالم الفكري للمستشرق وفي القواعد السيكولوجية التي تؤسس ذلك العالم وترسم لنفسية المستشرق أبعادها. وأما الفائدة الثالثة، فهي التمكن، أخيرا، من الدروب التي تقود إلى تحرير الإنسان بتطهيره من الأوهام التي تسكن "الفكرة" التي يعتقدها ويكون قادرا بموجبها لا على الانفعال بها فحسب، بل وعلى السجود لها وتقديم القرابين لمحرابها كما يقول جوزيف كونراد وهذا التحرير أو "التطهير" (وهما وجهان لقطعة واحدة) هو غاية الحكمة ومبتغاها.

لنتأمل، برهة، "فكرة" الاستشراق هذه ولنحاول الكشف عن الخطوط والألوان والأبعاد التي ترتسم بها صورتها، ثم لنتساءل، في الوقت ذاته عن القماش أو الورق أو الجمل الموسيقية (قراءة إدوارد سعيد لأوبرا "عايدة" للمؤلف الأشهر فيردي) التي تشكل مادة الصورة ولحمتها.

يكتب إدوارد سعيد، في جملة ما يكتبه، عن "فكرة الشرق":

"الشرق فكرة لها تاريخ وتقاليد فكرية، كما أن لها تخييلا وقاموسا أكسبها واقعية وحضورا في الغرب ومن أجل الغرب"[14]. ذلك التاريخ هو تاريخ الأوهام التي صنعها الغرب وضع بموجبها الشرق. لا الشرق الجغرافي، ولا التعيين الرمزي الذي يدل على حضارة ويشير إلى شعوب فعلية، وإلى ديانات معلومة. لكنه الشرق كما تم "تشريقه" على يد المستشرقين. هو كما تم تركيبه في مخابر الاستشراق، وكما مثله الفكر الاستشراقي لذاته، أما صلته بالعالم المادي للأفراد، في زخمه وتنوعه واضطراب أفراده، فهي صلة واهية حينا منعدمة أحيانا عديدة غالبة وإنما الشرق في تصور الاستشراق "فكرة تتأرجح في مجملها بين احتقار كل ما كان مألوفا وبين ارتعاشات ملؤها اللذة ـ أو الخوف ـ تجاه كل ما هو جديد"[15]. يمكن القول بالأحرى إن "استيهام الشرق"، صنيع ذلك المسافر الذي يرسم في خياله صورا لما سيراه أو يصادفه، صورا تملؤها المسرات والمغامرات الوردية حينا، وتخرقها المخاوف الغامضة والوساوس التي تطرد النوم من الأجفان وتسد الفم عن الطعام والشراب.

هذه الصورة ـ الفكرة يعرض لها ما يعرض لمعرف "الآخر" ويمثله عند المسافر إجمالا. ذلك أن مشاهدات الرحالة وانطباعاته تحكمها الأفكار والمشاعر التي يحملها معه من بلده. وبموجب قانون سيكولوجي واضح لا يكون "الآخر"، عند المسافر، سوى ما تعتقد الذات وتتوهم أنه الضد المخالف لها. فالآخر هو الهمجي المتوحش الذي يستدعي الحيطة والخوف والانطواء على الذات، وصورة "الشرق" تخضع عند "المستشرق" لنقل مع إدوارد سعيد، أي عند ذاك الذي "يشرق" الشرق أي يضفي عليه لباسا ليس له ويلصق به صورة هو عار عنها، (وهي غريبة عنه) لموجهات تثوى في النفس بفعل أسباب عميقة (نحاول الوقوف عندها في القسم الموالي الذي نفرده للحديث عن سيكولوجيا المستشرق).

صورة الشرق تخضع لمبدأ آخر كشفت عنه الدراسات الأنثربولوية الأولى في محاولات فهمها لما كانت تقول عنه إنه "المجتمع البدائي" ـ أي ذاك الذي يوجد من الحضارة في درجة الصفر كما يقول البعض الآخر. والمبدأ المشار إليه هو مبدأ المشابهة أو "الشبيه"، هو المبدأ الذي يكون بموجبه ما عندي مشابها بـ "الضرورة" لما عند الآخر . . .

14. Edward W, Saïd, L'Orientalisme..., précité, P : 17.

15. المرجع السابق، ص. 75.

والتسليم بهذا المبدأ يوقع، ولا غرابة في ذلك، في أخطاء لا يخلو الاطلاع عليها من تسلية في بعض الأحيان. من ذلك مثلا الصورة التي ترتسم لنبي الإسلام محمد عند العديد من أهل المسيحية في العصر الوسيط: "مادام المسيح هو أس الديانة المسيحية فإن النبي محمد يكون، بالنسبة لأهل الإسلام، ما كان المسيح بالنسبة للمسيحية ـ ومن ثم نعت "المحمديون" الذي كان أولائك المسيحيون يطلقونه على النبي محمد حين الحديث عن المسلمين"[16] ـ ولا عجب أن المماثلة تبلغ، عند البعض، درجة افتراض أن القرآن قد تمت كتابته عدة قرون بعد موت النبي محمد، مثلما كان كتابة الإنجيل (في رواياته المختلفة) قرونا بعد ذهاب المسيح.

يمكن القول إن "الشرق، على النحو الذي يمثل به في الاستشراق، نسق من التمثلات تؤطرها سلسلة من القوى تم نقلها إلى علم الغرب، ثم إلى الوعي الغربي، لتنتقل بعد ذلك إلى مملكة الغرب"[17]. في سيرورة المعرفة يكون التماهي مع قوة الحضور الإمبريالي وفظاظته وإرادته الفتك بـ "الآخر" وتغييبه وإحاله إلى "الفكرة" التي يموت المرء فداء لها وتجود يده لها بالذبائح والقرابين "ما أدعيه هو أن الاستشراق عقيدة سياسية في عمقها تم فرضها على الشرق لأن هذا الأخير كان أشد ضعفا من الغرب، فكانت تلك العقيدة السياسية تسعى إلى إزالة الفروق بين الغرب والشرق حتى يسهل ذوبان الأخير في ضعفه"[18]. هي آلية جهنمية لم تسلم منها الأعمال الإبداعية حتى وإن كانت تتوهم عكس ذلك، ولم يكن الفكر النقدي في أبهى صوره وأعظم تجلياته في منأى عن التردي في شباكها، وذلك ما حدث لكارل ماركس على وجه التحديد.

يكتب ماركس في حديثه عن الاستعمار الأنجليزي للهند وللثورة التي عرفتها بلاد الهندستان، بإيعاز من المستعمر البريطاني: "من الأكيد أن بريطانيا، بإذكائها لنار الثورة الاجتماعية في الهندستان، كانت منساقة وراء أكثر المصالح بشاعة وأنها كانت تعمل بكيفية بليدة من أجل بلوغ ما اختطته من أهداف، بيد أن السؤال لا يوجد في هذا الآمر. إن

16. نفس المرجع، ص: 77.
17. المرجع السابق، ص: 233.
18. المرجع السابق، ص: 234.

المسألة تتعلق بمعرفة ما إذا كانت الإنسانية قادرة على تحقيق مصيرها دون القيام بثورة أساسية في الحالة الاجتماعية. إذا كان الأمر غير ذلك، وأيا كانت الجرائم التي اقترفتها بريطانيا فإنها كانت أداة لا واعية في التاريخ (. . .) لقد كان يتعين على بريطانيا القيام بمهمة مزدوجة في الهند: المهمة الأولى تدميرية، والثانية إحيائية ـ احتواء الهند كلية وإدماجها"[19].

لم يكن فيلسوف الثورة يملك أن يسلم من إسار الهيمنة الإمبريالية، وقد كانت فاعلة في مستوى الفكر أو في مستوى "الممارسة النظرية" كما يقول بعض الماركسيين. لم يسلم من التسليم بالمهمة "الإحيائية" و"التحضيرية" التي يقوم بها الاستعمار البريطاني. تماما كما لم يكن الروائي الفرنسي، سليل الطبقة الشغيلة وداعية "التمرد" أن يسلم من التسليم للمهمة ذاتها بالنسبة لفرنسا في الجزائر وذلك التسليم حجب عنه رؤية أشياء كثيرة واضحة للعيان، لا بل إنه رأى نقيضها في "الطاعون" وفي "الغريب" كما تكشف عن ذلك صفحات جميلة، عميقة، أفردها إدوارد سعيد للحديث عن كامي والتجربة الإمبريالية الفرنسية في "الثقافة والثورة"[20].

صورة الشرق، على النحو الذي ترسمه "فكرة الشرق" في الكتابات الاستشراقية كانت صورة متبدلة في مظاهرها قارة وعنيدة في ثباتها من جهة العمق، في الفترات المعلومة التي مر بها الاستشراق وعرفها التفاعل بين الثقافة والامبريالية (العصور الوسطى، عصر الأنوار، حملة نابليون على مصر، الاستعماران الفرنسي والبريطاني، ثم زمان الهيمنة الأمريكية ولسعيد عند هذه الأخيرة وقفة خاصة نفقتها معه في المقطع الذي نفرده للحديث عن الإعلام وأثره الحاسم في الحديث عن "الشرق"). وطلبا لتوضيح أكبر لهذه الصورة يلزمنا أن نحاول الوقوف برهن وجيزة عند سيكولوجيا المستشرق.

19. كارل ماركس، "المجتمعات ما قبل الرأسمالية" (الترجمة الفرنسية)، المنشورات الاجتماعية، باريس، 1970، ص: 176.
يورده إدوارد سعيد في الصفحة 179 من "الاستشراق" المذكورة أعلاه.
20. في الترجمة الفرنسية ـ وقد أسلفنا الإحالة عليها. أنظر الصفحات 255 ـ 263 على وجه الخصوص.

3. سيكولوجيا المستشرق

"فكرة الشرق" تحيل الصورة في نفوس المستشرقين إلى عالم يخلو من اللون والطعم، فلا مذاق له ولا ملامح وإنما هو كائن هلامي لا يكاد يبين، يحجبه الضباب وتلفه الغلالة السحرية التي يلبسه المستشرق إياها. يجوز القول أيضا إن الشرق يصبح إدراكا صوريا محضا: مجموعة أو مجموعات إنسانية قد تتمايز بلون البشرة وبانتسابها إلى أراضي معلومة. أما الأفراد، البشر الذين يكونون تلك المجموعات فلا وجود فعلي لهم: أحزانهم، أفراحهم، أحلامهم، أذواقهم، حياتهم في صخبها وهدوئها، في علاقات الشد والجذب والانقباض والانبساط ... كل ذلك لا يتبينه المستشرقون لأنهم عاجزون عن ذلك بل الحق أنهم "لا يهتمون بالأفراد بتاتا، لأنهم عاجزون عن الحديث عنهم"[21] وهم كذلك لأن عراقيل ذاتية تمنعهم من ذلك. ذاك ما يحاول إدوارد سعيد تقصيه وهو ينقب في سيكولوجية المستشرق عساه يلفى المكامن التي تحول بين المستشرق وبين رؤية الإنسان العربي، والمسلم، عربيا كان أم غير ذلك. يذهب في تحرياته بعيدا فيجد أنها عوامل ثلاث أساسية تفعل فعلها في نفسية المستشرق ووجدانه فتكيف نظرته لذلك المسلم والعربي لتسجن تلك النظرة في قوالب جاهزة، نهائية، من المعايير والأحكام. "ساهمت عوامل ثلاثة في جعل تصور العرب والمسلمين، حتى في أكثر الإدراكات بساطة، شيئا مسيسا أشد ما يكون التسيس، بل شيئا يكاد يكون ديماغوجيا كلية. أ) تاريخ الأحكام القبلية الشعبية المناهضة للعرب والمسلمين في الغرب، وهي التي تجد صداها المباشر في تاريخ الاستشراق. ب) الصراع بين العرب وبين الصهيونية الإسرائيلية وآثار ذلك الصراع على اليهود الأمريكيين وكذا، بصفة أكثر عمومية، على الثقافة الليبرالية وعلى سواد الشعب. ج) الغياب شبه الكلي لأدنى موقف ثقافي سواء من أجل التماهي مع العرب ومع الإسلام من أجل حسن الفهم أو من مناقشة دون انفعال كبير"[22].

يمكن القول، في نظرة تحاول النفاذ إلى عمق الأشياء والبحث عن الإنسان باعتباره قيمة عليا تعلو على الحدود الجغرافية والفواصل العربية، بل وتطلب مجاوزة ثنائية المستشرق/

21. "الاستشراق" (الترجمة الفرنسية السابقة الإشارة إليها ... ص: 180).
22. المرجع السابق، ص: 40.

الشرقي إن الإنسان في المستشرق بأوهامه الذاتية فهو منها في سجن غاب فيه السجان وضاع المفتاح.

هذا السجن الفكري تعظم المصيبة فيه وتشتد الأزمة الروحية وتتكاثر الأوهام لتغدو كالثعابين، وتكون مثيل المرض النفسي وشبيه الليل الذي لا يكاد ينجلي... يكون ذلك كله، وأكثر منه في العالم الذي ترسمه الصحافة وتحكم التلفزة ووسائل الاتصال الأخرى وثاقه فتصيره محفوظات بسيطة، وصورا اختزالية تختفي لتظهر من جديد وهكذا دواليك.

4. سلطة الإعلام أو الاختزال الجديد للصورة

إذا كان الاستشراق، في سيرورته الفكرية وفي خضوعه اللاشعوري لسلطة الإمبرالية، يقوم بعملية إفراغ للشرق من محتواه الفعلي ويجرده من حرارة الوجود الإنساني ويحيله، بالتالي، إلى تجريد سالب يغدو بموجبه "فكرة" يبلغ من مداها في النفوس الاعتقاد الوثني في سحرها والتسليم بوجوب تقديم القرابين على مذابحها ـ إذا كان ذاك كذلك في الاستشراق الفرنسي والبريطاني (= في زمان هيمنة الإمبريالية) وكان قريبا من ذلك في فكر "الأنوار" وفي كتابات السابقين عليهم في عصر النهضة حتى نصعد القهقري إلى العصر الوسيط... فإن "فكرة الشرق" ترقى في سلم التجريد مراتب جديدة كما أن عملية الاختزال (اختزال الشرق، برمته، في جملة معان وتصورات بسيطة، قارة، تستوجب ردود فعل محددة من قبل) تبلغ ذروتها في زمان الهيمنة الأمريكية... زمان عالم القطبية الواحدة، وزمان التحدث باسم "الغرب" في مجموعه. في هذا الزمان يحتل "الخبراء" ورجال الصحافة المكتوبة والمرئية خصوصا ونساؤها بطبيعة الأمر)، يحتلون المواقع التي كان المستشرقون (الكلاسيكيون ـ الجامعيون) يحتلونها من قبل. لهذه الصورة الجديدة وآثارها ومظاهر قوتها وضعفها معا يخصص إدوارد سعيد مجمل كتاباته اللاحقة على "الاستشراق". ذاك ما نجده في "الثقافة والامبريالية" (في الفصلين الثالث والرابع خاصة، أي ما يعادل نصف الكتاب الضخم). وذلك ما يشكل لحمة "تغطية الإسلام" Covering Islam، وبالجملة فإن إزالة الحجب عن الصورة الجديدة للشرق وتقديمها في عريها الذي يفضح موجهاتها الإمبريالية ويدل على الأوهام التي تغل صانعي تلك الصورة ومروجها. وللتدليل على الظلم الشديد الذي يلحق بـ "الشرقي" (وقد "شرقه" المستشرق الجديد) وهذا من

جانب أول، وللكشف عن ضحايا الصورة ضحايا الاستهلاك الإعلامي والتلفزي الأمريكي خاصة وهذا من جانب ثان ـ لهذا العمل المناضل من أجل الإنسان ومن باب النزاهة الفكرية والموضوعية المطلوبة نرى لزوم التأكيد على صفة النضال من أجل "الإنسان") صرف إدوارد سعيد جهده بالكتابة، والحوار، والحديث التلفزي، المعركة الكبرى، المضمرة حينا والمعلنة حينا، من أجل فلسطين والقدس... من أجل "الإنسان" وإنسانيته في "المستشرق" (بكسر الراء) وفي "المستشرق" (بفتح الراء) معا.

هذا "الاختزال الشديد" لفكرة "الشرق" جعل كل طوائف "المستشرقين" (بفتح الراء) تفقد كل أشكال التمايز والاختلاف بينها وترقى في مدارك التجريد درجات عالية لتشمل العرب والمسلمين أولا ثم لتنتقل بعد ذلك (بعد أزمة احتجاز الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران) فتجمع الكل (عرب، عجم، سنة، شيعة، أفارقة، أسيويين...) في سلة واحدة إسمها "الإسلام" وقد صار "الفكرة" التي يصنعها المستشرقون الجدد (رجال الصحافة، خبراء مراكز البحث المشتغلون بالموضوعات الحركات الإسلامية، الشرق الأوسط ...) وإن من المفيد أن نقف عند بعض العوامل الفاعلة التي أحدثت ما أسميناه بعملية "الاختزال الشديد" أو المنحى "التبسيطي" الذي كيفته الصورة والصوت في البث التلفزي وأحدثت فيه في النفوس آثارا ـ شبيهة بتلك التي يحدثها الإدمان على تلقي الوصلات الإشهارية التي يكون تسريبها عبر البرنامج والموائد المستديرة ـ فضلا عن فعل الريبورتاجات والتعاليق السياسية المدعمة بالصورة المنتقاة بدرجة عالية من القصدية والدهاء الإعلامي. نقف، وقفة تسجيل وإشارة فحسب عند بعض تلك العوامل.

نقرأ لإدوارد سعيد أولا:

- "ليس في الأمر كبير مبالغة أن نقول إن "الإسلام" نادرا ما كان يظهر في الثقافة أو في وسائل الإعلام، قبل الارتفاع المفاجئ في أسعار منظمة أوبك أوائل 1974، كنا نرى ونسمع عن العرب والإيرانيين والباكستانيين والأتراك، لا المسلمين، إلا فيما ندر. لكن تكلفة النفط المستورد التي ارتفعت ارتفاعا دراميا سرعان ما ارتبطت في ذهن الرأي العام بعدد من الأمور غير السارة"[23].

23. إدوارد سعيد، "تغطية الإسلام: كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم؟"، ترجمة سميرة نعيم خوري، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1983، ص: 63.

ونقرأ بعد ذلك:

"هناك إجماع حول "الإسلام"، باعتباره كبش الفداء لكل ما لا يروق لنا من أنماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة في العالم. فبالنسبة لليمين يمثل الإسلام الهمجية. وهو يمثل بالنسبة لليسار، التيوقراطية في العصر الوسيط. أما بالنسبة للوسط فإنه يمثل نوعا من الغرائبية الممجوجة. غير أن هناك اتفاقا، بين هؤلاء جميعا، مؤداه رغم أن النزر اليسير فقط معروف عن العالم الإسلامي فلا يوجد هناك الكثير الجدير برضانا وموافقتنا ـ وما يعد ذا قيمة في الإسلام هو، أساسا، عداؤه للشيوعية"[24].

ثم نقرأ نصا ثالثا في عنفوان أزمة رهائن سفارة أمريكا في طهران):

- "إذا دأبت الشبكات التليفزيونية على عرض الأزمة الإيرانية عبر صور حشود "إسلامية" تنشد الأناشيد وترافقها التعليقات حول "العداء لأمريكا"، فإن من شأن البعد المكاني وانعدام الألفة مع مثل هذه المشاهد وما تتضمنه من تهديد أن تحدد "الإسلام" في نطاق تلك الخصائص. وهذا بدوره يولد فينا شعورا بأن هناك شيئا غير جذاب وسلبي في الأساس يواجهنا. وبما أن "الإسلام" هو "ضدنا" وأنه "يقبع هناك بعيدا" تصبح الحاجة إلى اتخاذنا موقف مواجهة ضده ضرورة لاشك فيها"[25].

أعتذر للقارئ الكريم عن هذه الاستشهادات الطويلة والمتلاحقة ولكنني أجدني، قبل الانتهاء إلى تعليق إجمالي، في حاجة أن أقرأ هذه الفقرة من "الثقافة والإمبرالية" وأن نمعن النظر معا قليلا في مغزى "الروح الجزيرية" (نسبة إلى الجزيرة أو ما يقابل الكلمة الفرنسية Insularité والكلمة الأنجليزية Insularity) "نجد لدى الأمريكيين اليوم الشعور القديم بالتفوق الذي كان لدى بريطانيا، ذاك الذي ينتج عن ابتلاع جرعات كبيرة من "الجزرية" (= الانغلاق الفكري الناتج عن العيش داخل جزيرة لا يغادرها ساكنها) ومن الجهل بباقي العالم (. . .) هذه الجزرية أسهمت في إبعاد الأنتلجنسيا الأمريكية الحديثة عن الحياة مثلما أبعدتها عن الحقائق التاريخية (. . .) كل هذا ينطبق كلية على حرب الخليج في

24. المرجع السابق، ص: 15.
25. المرجع السابق، ص: 72.

عام 1991. فعندما كان الأمريكيون يشاهدون التليفزيون كان لديهم اليقين المطلق بأن ما يرونه هو الواقع في صدقه في حين ان ما كانوا يشاهدونه لهو الحرب الأكثر تغطية وحجبا، ولهو أقل الحروب التي يخبرنا بها التاريخ. لقد كانت النصوص والصور مراقبة كلية من قبل الحكومة"[26].

ليست النصوص المذكورة أعلاه في حاجة إلى تعليق، في حد ذاتها، فهي بالغة الدلالة في وضوحها وفي إرادتها الكشف عن مواطن الخطل في الرأي والزلل في الرؤية ـ وإن من اليسير على كل منا أن يقرأ، بنفس المنظار الذي يأخذ به إدوارد سعيد، كل الحوادث الكبرى اللاحقة على "أزمة الرهائن" وما اصطلح على تسميته أزمة الخليج الأولى (الخليج الثانية، 11 سبتمبر 2001 وتداعياتها، احتلال العراق ...). يقرأ فتنكشف له قوة فعل الإعلام التلفزي (خاصة) وقدرته على التكييف السيكولوجي والتوجيه الإخباري أو ما يسميه الأنثروبولوجي الأمريكي رايت ميلز "الجهاز الثقافي"... ولكن ما يستوجب التعليق فعلا هو وجوب الانتباه إلى قوة تنبيهات إدوارد سعيد إلى تقاعس المثقفين عن مواجهة هذا "الجهاز الثقافي" والقوى الماسكة به (إلا ما كان من احتجاج مفكر مثل شومسكي وزمرة قليلة معه) وهذا من جهة أولى ـ ثم التنبيه إلى ضحالة فكر "الأكاديميون الجديد" بل وجهلهم، متى قارناهم مع السابقين عليهم فلا إجادة للغات الشرقية (مثلما كان الشأن عند شاخت وبرو كلمان ونولدكه ونليني ولاوست، وماسينيون وغيرهم)، بل إن إدوارد سعيد ينعي على أحد كبار المتخصصين في العالم العربي جهله المطبق باللغة العربية (وذاك هو الشأن عند غيرتز Geertz مثلا) ـ ولا التزام بالحدود الدنيا المطلوبة، بل تجن وحملة مسعورة على الإسلام وحقد غريب ومحير عند باحث له على تاريخ الإسلام وحضارته إطلاع واسع وللغة العربية إجادة (وذاك شأن برنارد لويس).

5. تطهير الفكر ـ تحرير الإنسان

لاشك أن مبضع الجراح إدوارد سعيد قد كان حادا في تشريحه لميكانيزمات "الجهاز الثقافي" الأمريكي، ولا غرو أنه لم يكن مهادنا في نظرته إلى الإعلام عامة، وإلى قنوات

26. Edward W, Saïd, *Culture et Impérialisme* ..., O. précité, pp. 420-421.

التلفزة في الولايات المتحدة الأمريكية خاصة. بيد أنه من السذاجة، من جانب أول، وأنه تحريف لفكر مؤلف "الاستشراق" من جانب ثان أن يقرر المرء أن عمل سعيد نوع من تصفية الحساب الشخصي أو، كما كتب البعض، بحث عن بلسم ذاتي لمعالجة الجروح الذاتية التي خبرها الرجل بحكم التوتر الناشئ عن الاضطراب بين عالمين متقابلين ومتناقضين كلية[27] و الحق أنه لا شيء أبعد عن الصواب من هذا الاعتقاد. ذلك أن الرجل يذكر، الفينة بعد الأخرى، بانتسابه إلى الثقافة الأنجلوسكونية في عمق تكوينه، مثلما يشيد بنظام التعليم الجامعي الأمريكي دون أن يمنعه ذلك، على سبيل المثال، أن يستنكر كيف أن تبرع اليابان أو ألمانيا وكذا بعض الشركات الأمريكية) بأموال ومنح دراسية لا يثير ضجة ولا اعتراضا في حين أنه عندما "تتبرع البلدان المسلمة بالمال للجامعات الأمريكية لإنجاز الدراسات العربية أو الإسلامية تنطلق صيحة ليبرالية هائلة ضد التدخل الأجنبي في الجامعة الأمريكية"[28]. كما أن نقده، القوي الصارم، للتكييف الرهيب الذي تمارسه وسائل الإعلام على المواطن الأمريكي لا يمنعه من التنويه بالحرية التي يوفرها المجتمع الأمريكي حيث "تسود المواطنين ووسائل الإعلام قابلية لا مثيل لها لتقبل وجهات النظر الجديدة غير التقليدية أو الشائعة التداول"[29].

إن البحث عن الإنسان يعني، في نهاية المطاف، العمل على تحرير الإنسان من أوهامه الذاتية أولا وقبل كل شيء. ذلك أن المستشرق، قبل أن "يشرق" الشرق يكون هو نفسه سجين أحكامه القبلية، وسجين اللاشعور المعرفي الذي يحكم الثقافة التي ينتمي إليها، وسجين التكييف النفسي الذي تقوم به أجهزة المعرفة ـ تلك التي هي ذاتها تكون محكومة بالأجهزة الإيديولوجية.

وإذن فإن تحرير الإنسان يكون بتطهير الفكر وتنقيته من الشوائب التي تعلق به. ومتى اعتبرنا "الاستشراق" من هذه الزاوية فإن عملية التطهير تعني تعرية الاستشراق ذاته والكشف عن الميكانيزمات التي توجهه وأخطرها تلك التي تقضي بجعل أبناء البشرية في

27. *L'Orientalisme* ..., P : 363.
28. إدوارد سعيد، "تغطية الإسلام"، سبقت الإشارة إليه، ص: 18.
29. المرجع السابق، ص: 72.

لوحة إحصائية تضييقية يكون الإنسان بها هنديا أو أمريكيا، شرقيا أو غربيا، أسود البشرية أو أبيض اللون.

الحق أنه:

"لا أحد اليوم هو محض هذا أو ذاك فحسب. هندي، امرأة، مسلم، أمريكي، كل هذه النعوت لا تعدو أن تكون نقط انطلاق فحسب. لنصحب الإنسان في حياته اليومية، وليكن ذلك لبرهة وجيزة، فنجد أن تلك النعوت تتم مجاوزتها بسرعة كبيرة جدا. لقد قامت الإمبريالية بتحديد هويات وثقافات لا تعد ولا تحصى على المستوى الكوني. بيد أن الأدهى والأمر وأكثر الهدايا التي وزعها مفارقة هي تلك التي تكمن في إيهام الشعوب أن أبناءها هم بكيفية ضرورية ومطلقة بيض، أو سود، أو غربيون، أو شرقيون"[30].

تطهير الفكر وتحرير الإنسان معركتان تلتقيان في الأهداف وتختلفان في الوسائل، ذلك هو الدرس الذي أدركه إدوارد وديع سعيد وألزمه استيعابه أن يعي عمق تقلبه القلق بين العالمين الذين ينتسب إليهما دون أن يشعر بأنه، كلية وعلى نحو جازم، ينتمي إلى أي منهما، ذلك الدرس، مقترنا بالأدوات المعرفية الهائلة التي كان مؤلف "الاستشراق" يتوافر عليها وممتزجا بدفين آلامه الذاتية وعميق تجربته الإنسانية هو ما مكنه من إدراك حقيقة الحكمة السقراطية "إعرف نفسك بنفسك" ـ فطفق يبحث عن الإنسان في المستشرق (بكسر الراء) وفي المستشرق (بفتح الراء) مدركا أن معركة التحرير، في عمقها الإنساني، معركة واحدة وسلاحها سلاح واحد: حده الأول تطهير الفكر وحده الثاني تحرير الإنسان.

30. *Culture et Impérialisme* ..., P : 464.